صلح الحديبية وأثره على واقع العلاقة بين مكة والمدينة و الدعوة الإسلامية في عصر الرسالة

للباحث : م.م نكتل يوسف محسن الزبيدي
دائرة التعليم الديني والدراسات الإسلامية – ديوان الوقف السني

Al-Hudaybiyah and The Peace its impact on the reality of the relationship between Mecca and Medina and the Islamic mission in the era of the message

Naktal Yousif Mohsen Al-Zubaidi
Department of Religious Education and Islamic Studies - Sunni Endowment Office

Abstrace

Each of the events of the Prophet's biography is considered to have a clear impact on the public life of Muslims, because these events were like threads of the sun that give light, warmth and life. His biography was a testament to social, religious, economic, cultural and even political advancement. Among these incidents is the Hudaybiyya peace, which has three investigations: which was of outstanding importance in the history of Islam; And a broad influence on the spread of advocacy; A change of centers of power; The problem is represente in some of the terms of this reconciliat In terms of the significance of the incident, represented by changing the Quraysh's view of Muslims and their presence in the city from rebels and outside the authority of their ancestors, to their peers: the right to exist; Freedom to invite; The right to exist; It is through their sitting to negotiate with the Prophet and his companions on items that include the nature of the relationship between Mecca and Medina, and the conclusion of a truce between the two parties, as well as other terms.

As for its impact on the freedom of the Islamic call and changing the centers of power in the Hijaz, the Arab tribes used to look at the Quraysh with a view of pride that they were the people of the Haram and its inhabitants, so none of them dared to oppose them and turn in general to the Prophet except for a few individuals who disagreed with this opinion and joined the Prophet and his call. Al-Solh, with its clauses, indicated the formation of alliances, the dissemination of the call, and the change of the tribes' position in favor of Islam. Moreover, the articles of peace were controversial if not to the protest, which was based on the pride of the Muslim and his dissatisfaction with the religion in his religion, those provisions that refused to return to the Quraysh who believes in the Prophet, and forbade the Prophet to prevent those who renounce Islam from returning to the Quraysh, but This protest quickly clashed with the mountain of obedience that Muslims had for the Prophet, and it became clear later that this provision was in favor of Muslims. In conclusion, the Hudaybiyah peace was not just a passing peace, but rather it expressed the victory of God and the ability of his Messen

to conduct dialogue and self-control, in addition to that it was an opening for hearts that preceded the conquest of Mecca by years

Key words : peace, Al-Hudaybiyah, the Prophet, Muslims, Qurais.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على الهادي الأمين ، وعلى أله وأصحابه الغر الميامين ، ومن سلك طريقهم وأهتدى بهديهم الى يوم الدين.

حظيت السيرة النبوية وموضوعاتها بإهتمام الباحثين والمفكرين والعلماء من جميع أنحاء العالم ، وذلك لأنها أسست لواقع كان له بصمة واضحة في تاريخ الأمم في العالم ، إذ أحدث تغيرات تاريخية ودينية وأقتصادية وثقافية .

وقد كانت حادثة صلح الحديبية من الحوادث الخالدة في السيرة النبوية ، إذ مهدت لسيادة الإسلام في الحجاز والجزيرة العربية ، ومن هنا كان أختياري لموضوع البحث الموسوم " صلح الحديبية وأثره على واقع العلاقة بين مكة والمدينة و الدعوة الإسلامية في عصر الرسالة " فقد قدر أسباب تسيد الإسلام للجزيرة كما قدر ولادته ، إلا إن هذا المولود المبارك التي ولدته الأقدار ، قد مر بمخاض عسير ، وتعرض للهلاك في أكثر من موقف ، فقد مارست قريش ضغطها التي إعتادت عليه في تعاملها مع المسلمون ، فحاولت أن تجرهم للحرب في أكثر من موقف ، والنبي يدعو الى السِلم ، وهنا أمتحن المؤمنون ونبيهم ، وما زاد المحنة شدة ومضاءً ، هو شروط الصلح التي عقدت بين النبي وقريش ، والأسلوب الذي تصرف به رسلها مع النبي والمسلمون ، قد أوجد حالة من عدم الرضا – داخل البيت الإسلامي – وهو أمراً قلما نجده في حوادث السيرة النبوية .

وقد قسم البحث الى ثلاثة مباحث : تكلم الأول عن بدايات التجهز والسير الى مكة لأداء العمرة ، فيما أفصح المطلب الثاني : عن بدء المفاوضات واللقاءات بين المسلمون والمشركون ، أما المبحث الثاني فتحدث عن : البيعة وصلح الحديبية وتقييم مجرياته ، إذ تطرق المطلب الاول : للحديث عن البيعة التي أعقبت خبر مقتل عثمان بن عفان وصلح الحديبية ، وقدم المطلب الثاني عرضاً لتقييم مجريات صلح الحديبية ، أما المبحث الثالث والأخير فقد تناول أثر صلح الحديبية في الدعوة الإسلامية وتغيير مراكز القِوى في الحجاز ، إذ تطرق المطلب الاول لأثر صلح الحديبية على الدعوة الإسلامية ، أما المطلب الثاني فكُرس للحديث عن صلح الحديبية وأثره في تغيير على تغيير مراكز القِوى .

وقد سعت البحث إلى توخي الحقيقة وتقديم صورة تاريخية دقيقة قدر الإمكان ، وفي ذلك خدمة بينة للفكر التاريخي الإسلامي ؛ لأننا كمسلمين نحتاج هذه السير لنأخذ منها الدروس والعِبر التي ممكن الافادة منها في حياتنا المعاصرة .

منهجياً اعتمد الباحث المنهج التاريخي النقدي قدر الإمكان والتزمت بفترة البحث (عصر الرسالة الإسلامية) ولكنني ، وقد تم الاعتماد على المصادر الأولية التي غذت البحث وخاصة في هياكله الرئيسة ، إلا أنَّ هذه المصادر فيها بعض الثغرات والحلقات المفقودة لذا اعتمدت على المراجع الثانوية لسد النقص الحاصل عن طريق استخدام المشابهة والقياس، فضلاً عن تحليل النصوص. وفي الختام أود تسجيل شكري لكل من ساعدني في إنجاز هذه المادة مهما كانت حجم المساعدة ، وأرجو من الله ان يوفقني لما فيه الخير لهذا الدين الحنيف ، وان يجعل هذا العمل خالصا لوجهه تعالى وان يجعله في ميزان حسناتي ، كما أرجو أن أكون قد وفقت

في كتابة هذا العمل ولا ادعي الكمال في هذا العمل لان الكمال لله وحده فما كان فيه من توفيق فمن الله العزيز القدير وما كان فيه من اخفاق فمن نفسي ومن الشيطان وأخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

المبحث الأول : في الطريق بين المدينة والحديبية

المطلب الأول : المسلمون يخرجون من المدينة

في هذا العام زيارة البيت الحرام وأداء العمرة من دون وجود نية مسبقة للحرب مع قريش ، فأبلغ المسلمون بهذا للتهيؤ ﷺأراد النبي الذي أستعمله على المدينة))(٢) ، ولذا لم ﷺ وإعداد العدة للسفر ، وترك أدارة المدينة للصحابي : ((نميلة بن عبد الله الليثي(١) يكثر النبي من حمل السلاح ، إذ أكتفى بما خف من السلاح فخرج مصطحباً معه المهاجرين والأنصار والذي بلغ عددهم الف وأربعمائة رجل وساق الهدي أمامه وأحرم بالعمرة ليوصل رسالة الى قريش أنه لم يأتي لحرب إنما جاء معظماً لبيت الله زائراً له (٣). الحرب لخرج بعدد أكبر من المقاتلين ولأستكمل عدة ﷺ في أداء العمرة ، اذ لوكان نية النبيﷺوهذا يوضح بصورة جلية مقصِد النبي الحرب .

فلما سمعت قريش بذلك ، خرجوا ومعهم العوذ المطافيل(٤) وقد لبسوا جلود النمور ونزلوا بذي طوى وقد عاهدوا الله لا يدخلها بذلك قرر مخالفة الطريق الذي سارت فيه قريش في نية واضحة ﷺعليهم أبداً وكان على خيلهم خالد بن الوليد (٥) ، فلما سمع النبي : ((... يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم ﷺلتجنب الإحتكاك مع قريش فقال أصابوني كان الذي أرادوا وإن اظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة))(٦) .

وقد كان من تبعة هذا القرار النبوي أن يسلك المسلمون طرقاً عرة لا يسير بها الناس ليتحاشى مقابلة قريش والإلتحام بهم ، ((فسلك بهم طريقاً وعراً أجرل بين شعاب فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين وأفضوا الى أرض سهلة عند منقطع الوادي قال رسول اللهﷺ للناس قولوا نستغفر الله ونتوب إليه فقالوا ذلك فقال والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها))(٧) ، فلما وصل ثنية المرار(٨) بركت ناقة النبي ، ((فقالت الناس : خلأت(٩) الناقة قال : ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة لا تدعوني قريش اليوم الى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ثم قال للناس أنزلوا قيل له يا رسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه فأخرج سهما من كنانته فأعطاه رجلا من اصحابه فنزل به في قليب من تلك القلب فغرزه في جوفه فجاش بالرواء ...))(١٠) ، وهي من معجزاته عليه السلام .

المطلب الثاني : مفاوضات الصلح بين النبي وقريش

بعد الصعوبات والمشقة التي تمثلت في إجتياز الطريق الوعر ، وتحاشي ملاقاة قريش، والرغبة النبوية الجادة في المحافظة على طبيعة الرحلة بهذا الموضع حتى أتته رسل قريش الواحد تلو ﷺالتي خرج من أجلها ، وهي أداء العمرة وزيارة بيت الله الحرام ، وما أن استقر النبي الاخر، وكان أول من أتاه ، ((بديل بن ورقاء الخزاعي(١١) في رجال من خزاعة فكلموه وسألوه ما الذي جاء به فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائراً للبيت ومعظما لحرمته))(١٢) ، ويتضح من ذلك ضعف موقف قريش ، إذ أرسلت رسول من خزاعة ، ولم يرسلوا أحداً من رجالاتها ، على الرغم من أنها في عقر دارها ، والرسول في جمع من صحبه لا يحملون إلا ما خف من السلاح .

فلما تبينوا حقيقية الموقف ، رجعوا الى قريش فقالوا يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد إن محمداً لم يأت لقتال وإنما جاء زائراً هذا البيت فاتهموهم وقالوا وإن كان جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ولا تحدث بذلك عنا العرب (١٣) ، ولم يكن لا بل ان خزاعة كانت ،((عيبة نصح رسول الله مسلمها ومشركهاﷺرأي خزاعة من الأراء المقبولة عند قريش لانهم كانوا مقربين للنبي لا يخفون عنه شيئا كان بمكة))(١٤) ، وهذا ما يعزز شكوك قريش في قبول رأي خزاعة .

لذا فقد بعثوا من يثقون به ليتبين أمر النبي وهو مكرز بن حفص(١٥) وكان شديداً على المسلمين صاحب غدر فيهم ، ((... فلما نحوا مما قال لبديل ﷺ وكلمه قال له رسول اللهﷺ مقبلاً قال : هذا رجل غادر فلما أنتهى إلى رسول اللهﷺرآه رسول الله وأصحابهفرجع الى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله))(١٦) .

وزيادة في الإطمئنان وإرضاءً للغرور بعثت قريش سيد الاحابيش الحليس بن علقمة وكان رجلاً يعظم العبادة فأراد النبي كسبه لصفه لما رآه : ((إن هذا من قوم يتألهون فأبعثوا الهدي في وجهه حتى يراه فلما رآى الهدي يسيل عله من غرض ﷺبلمحة ذكية إذ قال الوادي في قلائده وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله))(١٧) ، هاله ما رأى وعاد أدراجه الى قريش متأثراً غاضباً فزادت قريش من غضبه عندما تجاهلت رأيه ووسمته بالأعرابي فاستشاط غضباً وقال : ((يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أيُصد عن بيت الله من جاء معظماً له والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد))(١٨) .

وفي ظل هذا التطور الخطير التي أوقعت قريش نفسها به ، كان لابد من تدارك الأمر ، والحيلولة دون خسارة حليف مهم مثل الحُليس ، فقالوا له قولاً يخفف من حدة غضبه ، ((مه كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به))(١٩) ، إلا أن الحليس لم يكن الوحيد الذي تعرض لهذا الموقف ، فقد ذكر ، أن قريشاً كانت تعنف الرسل المبعوثه الى النبي(٢٠) ، الأمر الذي يعكس حالة التوتر والتخبط التي رافقت قريش في هذه الحادثة ، مما دفعها للتفكير الجاد بالمفاوضات ، وبهذا نجح النبي بكسب بعض حلفاء قريش الى صفه ، وحمل قريش على التفكير جدياً في المفاوضات ، وترك لسان الحرب التي تتكلم فيه .

وفي الوقت نفسه دخل على خط الأزمة ، عروة بن مسعود الثقفي(٢١) المقرب من قريش ، وحاول أن يقوم بفعل ما ، يجمع شعث قريش ويوحد أمرها وبالتالي يرجح كفتها في الأزمة ، إذ عُرف عنه الدهاء وسعة العقل وحُسن التدبير ، فقال : ((... قد سمعت بالذي نابكم فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم ...))(٢٢) ، فخرج وفي نيته تثبيط المؤمنون وتفريق جمعهم ، وضرب في سبيل هذا على وتر التفرقة فقال : يا محمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم الى بيضتك لتفضها بهم إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليها عنوة أبداً وأيم الله لكأني بهؤلاء قد إنكشفوا عنك غداً . وأبو بكر الصديقﷺ قاعد فقال أمصص بظر اللات أنحن نتكشف عنه(٢٣) ، وبهذا الرد الصاعق تبددت آمال عروة في إثبات قوة قريش ، ومحاولة تشتيت جمع المؤمنون ، ولم يزد النبي عن قوله : ((أنه لم يأت يريد حرب))(٢٤) ، ولكن النبي وبذكاه المعهود أراد أن يُري عروة – حب أصحابه له – مما يبدد أوهامه ويذهب بها أدراج الرياح ، فينقلها عروة لقريش فيعزز بذلك قوة المسلمين وتوحدهم ويكسبهم هيبة في قلوب أعدائهم ، فقد ((رأى – أي عروة – ما يصنع به أصحابه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه – أي النبي – ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه فرجع الى قريش فقال : يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم))(٢٥) .

الى قريش لشرح ﷺ ولما راى النبي أن قريش قد أصبحت في وضع يمكن من خلاله قبول المفاوضات ، قام بإرسال عثمان بن عفان له ، وجود عشيرته بني امية وتمكنهم من القرار السياسي في مكة(٢٦) . نوايا المسلمون في أداء العمرة ، وكان سبب أختيار النبي

المبحث الثاني : البيعة وصلح الحديبية وتقييم مجرياته

المطلب الاول : البيعة وصلح الحديبية

الى مكة ، حتى أنقطعت أخباره عن المسلمون فترة ليس بالقليلة ، إذ أن مفاوضات الصلح قد ﷺ ما أن دخل عثمان بن عفان أخذت وقتاً للنضوج ، كما أن لعثمان أقارب في مكة يحتمل أنهم زاروه وسلموا عليه فتطلب منه بعض الوقت ، الأمر الذي أعطى مجالاً واسعاً لترويج الشائعات التي تتحدث عن مقتله (٢٧) .

ومهما يكن من أمر ، فقد ترتب على هذه الشائعة رد فعل قوي من لدن النبي ، إذ قال : ((... لا نبرح حتى نناجز القوم ...))(٢٨) ، ثأراً لعثمان الذي قتلته قريش ، فدعا رسول الله الى البيعة فبايعه الناس بيعة الرضوان تحت الشجرة وكانت بيعتهم على الموت وقيل على أن لا يفروا (٢٩) ، وقد أمتنع عن البيعة الجد بن قيس (٣٠) الذي لصق بإبط ناقته قد ضبا إليها يستتر بها من الناس حتى لا يبايع (٣١)، وفي هذه الاثناء وصل الى مسامع النبي أن خبر مقتل عثمان لم يكن صحيحاً فبايع النبي وضرب إحدى يديه بالاخرى(٣٢) . عن عثمانﷺ

لقد أصابت هذه التطورات قريشاً بالفزع ، فسارعت الى تدارك الأمر وأرسلت سهيل بن عمرو(٣٣) للتفاوض على الهدنة مع الرسول ، وبعد مد وجزر وأخذاً ورد ، تم عقد الصلح بين الطرفين وقد جاء فيه ، ((... هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو أصطلحا : على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وإن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ... ، وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها))(٣٤) ، وبعد هذا الافصاح عن أمكانية عقد الحلف مع المسلمون والقرشيون على حد سواء ، تواثبت خزاعة فقالوا نحن في عقد محمد وعهده وتواثبت بنو بكر فقالوا نحن في عقد قريش وعهدهم(٣٥) .

المطلب الثاني : تقييم مجريات صلح الحديبية

أن من ينظر الى بنود هذا الصلح يجد فيها بنوداً أيجابية تصب في مصلحة المسلمين ، كالهدنة التي قوامها عشرة سنوات ممكن أن تُستغل في الدعوة الى الله وكسب القبائل الى الإسلام ، فضلاً عن أمكانية التحالف مع القبائل ، الى جانب بنوداً – يُظن لأول وهلة – أنها في غير مصلحة المسلمين ومن تلك البنود أن يرُد النبي من جاءه مسلماً من قريش – كأبي جندل وأبي بصير ورفاقهم — ولا ترُد قريش من جاء من المسلمون مرتداً اليها فضلاً عن رجوع النبيﷺ وأصحابه الى المدينة من دون أداء العمرة .

أضف الى هذا بعض التصرفات الأستفزازية التي أقدم عليها رئيس الوفد المفاوض عن قريش – سهيل بن عمرو – حيث ذكروا من علي بن أبي طالب فقال أكتب بسم الله الرحمن الرحيم قال فقال ﷺتصرفاته عند كتابة بنود الصلح حين ، ((... دعا رسول الله سهيل لا أعرف هذا ولكن أكتب باسمك اللهم فقال رسول الله اكتب باسمك اللهم فكتبها ثم قال اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو قال فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن أكتب أسمك واسم أبيك قال فقال رسول أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو))(٣٦) .

لقد أشعر هذا الواقع المسلمون بالغبن ، وجعل بعض الصحابة يظنون أن بنود الأتفاق مجحفة بالنسبة لهم ، وأنها أظهرت قريش بمظهر القوة في الجزيرة العربية والتي تمكنت من خلالها : منع المسلمون من العمرة ، وردهم الى المدينة المنورة ، لا بل أنها أقعدتهم عن نصرة اخوانهم المستضعفين في مكة ، ونهتهم عن التعرض لمن يرتد مشركاً منهم الى المدينة ، ولكنهم ومع هذا أخفوا شعورهم هذا عن النبي ﷺ – بما عرف عنه من صراحة متناهية وجرأة في قول ما بداخله ، فقد صرح به لأبي بكر رضي الله عنه – إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائلاً : ((يا أبا بكر اليس برسول الله قال : بلى . وألسنا بالمسلمين قال : بلى . قال أوليسوا بالمشركين قال : بلى . قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا قال أبو بكر يا عمر الزم غرزه فإني أشهد أنه رسول الله قال عمر وأنا أشهد أنه رسول الله ...))(٣٧) ، ويبدو أن هذا الجواب الذي جاد به الصديق لم يهدئ من غضب عمر ولم يثنيه عن رأيه ، لذا أتى رسول الله وقال : ((... يا رسول الله ألست برسول الله قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين قال : بلى . قال فعلام نعطي الدنية في ديننا قال : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني)) (٣٨) .

قد لمح به الصحابة بلسان الحال ، حين دعاهم النبي فقال : ((يا أيها الناس ﷺأن هذا الموقف الذي صرح به عمر بن الخطاب أنحروا وأحلقوا قال فما قام أحد قال ثم عاد بمثلها فما قام رجل حتى عاد بمثلها فما قام رجل))(٣٩) ، فلم يطعه أحد إذ ،((كان فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل عليه ﷺأصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله رسول الله في نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون))(٤٠) ، فلما راى النبي منهم هذا ، رجع فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمن منهم إنسانا وأعمد إلى هديك حيث كان فأنحره وأحلق فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك فخرج رسول الله لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون(٤١) .

وبهذه المشورة الكريمة من أم المؤمنين ، تلاشت المحنة وقام المسلمون ، فنحروا هديهم واطاعوا نبيهم وأوكلوا أمرهم الى الله ، وبهذا تم الصلح بعد ما تخلله من أمور ضايقت المسلمون ومحنتهم في أول الأمر حيث ، قالوا : صُددنا عن البيت وصُد هديُنا ورد رسول الله وعكف في الحديبية(٤٢) ، إلا أن هذه الكربة سرعان ما تلاشت وذهبت ادراج الرياح وجعل الله للمؤمنين فرجاً ومخرجاً .

المبحث الثالث : أثر صلح الحديبية في الدعوة الإسلامية وتغيير مراكز القِوى

المطلب الاول : أثر صلح الحديبية على الدعوة الإسلامية

لقد ألقى صلح الحديبية بظلاله على الدعوة الاسلامية ، فغير مسار الأحداث لصالحه ، وأكتسب أراضي جديدة ومسلمون جدد ، إذ أعتبر هذا الصلح – رغم قساوته – فتح الفتوح حيث انزل الله في طريق العودة الى المدينة سورة الفتح ، ﴿ إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ، وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً ﴾ (٤٣)، وبالفعل أثبتت الحوادث فيما بعد قيمة هذا الفتح ،((فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وآمن الناس بعضهم بعضا والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه ولقد دخل تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر))(٤٤) .

كما حاز المبايعون على رضوان الله ، فأنزل الله أيات كريمة عليهم فقال تعالى:﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا () وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

(٤٥)، وسميت البيعة بالرضوان لأن الله رضى عنهم ، وكان المبايعون الف وأربعمائة رجل ليكون ذلك مغفرة لهم على ما بدر منهم.
كما أبدى النبي وأصحابه غاية ضبط النفس في التعامل مع استفزاز المشركين ، فكان ذلك مدعاة لمنع أشتباك الطرفين ومنع الكتسبات الاسلامية قال تعالى : ، ﴿ ... وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً﴾ (٤٦)، وهذا يلاحظ من سير الأحداث فقد كانت قريش منذ البداية تريد الحرب فأكثرت من الرسل وأرادت أي مبرر لخوض الحرب فقطعت طريق وأضطرته لسلك طريق وعر وبعثت فرسانها ليستفزوا المسلمين وحاولوا إفساد الصلح بتصرفات الوفد المفاوض ، ﷺالمسير على النبي والمؤمنون في قمة السكينة — التي تنزلت عليهم من الله تعالى – يبطلون أساليب المشركين الواحدة تلو الاخرى ﷺوبالمقابل كان النبي ويقابلون السيئة بالحسنة فكانوا كما قال عنهم الله سبحانه وتعالى : ﴿ ... فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (٤٧).

لقد كان من تقدير الله عز وجل في عدم وقوع الحرب بين الطرفين لوجود مؤمنون في مكة قد أخفوا أيمانهم ومؤمنون قد حبسوا وافتتنوا في الله أن لا يتضرروا قال تعالى :﴿ ... وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ...﴾ (٤٨)، وقد نزلت الأية في رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ موجودون بمكة مع الكفار لَمْ تَعْلَمُوهُمْ بصفة الإيمان أَنْ تَطَئُوهُمْ تقتلوهم مع الكفار لو أذن لكم في الفتح(٤٩) .

المطلب الثاني : أثر صلح الحديبية على تغيير مراكز القِوى

لقد كان من شأن إتمام صلح الحديبية ، تغيرا واضح في مراكز القوى في الحجاز بشكل خاص والجزيرة بشكل عام ، فقد كانت قريش لا تعد للمسلمون حقاً في مكة أو المدينة وتعبرها متمردون خارجون عن سلطتها المتمثلة بالسلطة الدينية التي أخذتها من حمى بيت الله والقيام على خدمته ، ولكن جلسوها مع النبي وأصحابه جلسة الند بالند ، يُعد أعترافا منها بسلطانه على المدينة وبالتالي فسح هذا الامر في عقد القبائل المخالفة للنبي أتفاقات واسعة معه مما هيئ قبول الاسلام وتسيده منطقة الحجاز

ولم يكن هذا لولا تقدير الله وكفاءة نبيه الاكرم في إدارة دفة التوازنات ، إذ عدت قدرة النبيﷺ على التعامل مع كثرة الرسل التي ارسلتها قريش لمعرفة نية النبيﷺ ، فقد أستطاع النبيﷺ أن يكسب هؤلاء بالكلمة الحسنة والنية الصادقة ، ونجح في أستمالتهم الى صفه لدرجة أن عنفتهم قريش لكثرة ما يمدحون النبيﷺ ويدافعون عنه ، لا بل أن سيد الأحابيش قرر أن ينسحب من حلف قريش لولا أن تداركه بعضهم وعمل على تهدئته ، وهذا الأمر عمل على هز الوحدة القريشية من الداخل من دون حرب ولا ضِراب .

كما كانت بشارة الله للمسلمون بفتح مكة قال تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيباً ﴾(٥٠) ،فكانت الحادثة فتح قريب يمهد لفتح مكة الفعلي والذي تم بعد عامين .

لقد مثل المسلمون المحاصرون والذين شملتهم بنود الصلح بالابعاد عن المدينة ، ضغطاً كبياص في منطقة حساسة وهي منطقة سيف البحر الواقعة على طريق التجارة المكية — شريان مكة الوحيد – ، إذ خرج هؤلاء الى منطقة ساحل البحر ولحق بهم من كان محصوراً في مكة حتى كانوا قريباً من سبعين رجلاً يقطعون طريق عير قريش ويقتلون أصحابها حتى أضر قريش ما فعلوا ففاوضوا سيجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً .ﷺ حتى يكف أيديهم عن قريش وتجارتها ففعل(٥١) ، فقد كان كما قال رسول اللهﷺرسول الله كما عرف المسلمون قريشاً بجبهم للنبي، وقدموا لهم صورة واضحة عن ذلك ، وأكدوا أستعدادهم للموت من أجلة ، بعد أن أتهمهم المشركون بانهم – أوشاب الناس – من قبائل شتى لا يصمدون أمام المشركين ، فكانت هذه من الدروس المستفادة من صلح الحديبية.

وبهذا ساهمت حادثة صلح الحديبية في فتح الساحة بشكل واسع ، والتمكين للإسلام وأهله في الجزيرة العربية ، بعد ظن المسلمون لأول وهلة أنها في غير صالحهم .

الخاتمة

مما تقدم يتبين لنا ما يأتي :

١.يُعد صلح الحديبية من المفاصل المهمة في تاريخ الإسلام عموماً والسيرة النبوية خصوصا.

٢ لقد مكن هذا الصلح المسلمين من الدعوة بحرية تامة للإسلام ، ورفع الحظر القرشي المفروض على تلك القبائل لدخول الإسلام

٣. إبرز الصلح القدرة السياسية والأدارية للنبي الأكرم صلى الله عليه وسلم ، من خلال إستطاعته إدارة الحوار مع الكثيرين من . سفراء قريش التي أرسلتهم لمفاوضة النبي .

٤.أعطى النبي والمسلمون مثالاً واضحاً يحتذى في ضبط النفس والتحلي بالصبر لتحقيق نصراً جديداً للإسلام بغير سيف أو رمح
٥.لقد أعترفت قريش عبر هذا الصلح بسلطة النبي والمسلمون على المدينة ، وكانت قبل هذا تعدهم متمردون على سلطة الأجداد 5 الدينية .

٦.لقد منح الصلح فتحاً عظيماً للمسلمين فنشروا دعوتهم في الحجاز والجزيرة ، ما هي إلا سنتان حتى كانت مكة نفسها معقل قريش وأسيادها وجبروتها ، تحت حكم الإسلام وكان الفتح الأدنى " صلح الحديبية " دون الفتح الأكبر " فتح مكة " .

٧.كان من مزايا الفتح المحافظة على المسلمين الذين يخفون إسلامهم ، ويسكنون بين ظهرني المشركين من الموت والقتل من دون 7 معرفة ، فحفظهم الله من هذا المصير المحتوم .

٨. أشتملت بنود الصلح على بنود أظهرت تفوق المشركين وأرضت غرورهم ، لذا كان إعتراض المسلمون عليها من قبيل العزة الإسلامية التي لا ترتضي الغلبة أو الأنكسار الى المشركين ، ولكن عند أتضاح الأمور وجلائها تبين أنها لصالح المسلمين .

١() نميلة بن عبد الله الليثي : صحب النبي ويبدو انه كان من الصحابة المقربين ، لان النبي استعمله على المدينة وخيبر ، وشهد الفتح المكي مع النبي . ينظر : ابن حجر ، أحمد بن علي العسقلاني (ت : ٨٥٢هـ) ، الإصابة في تمييز الصحابة ، مركز هجر ، (مصر : ٢٠٠٨) ، ط١ ، ١٢٩/١١ .
(٢) ابن هشام ، عبد الملك بن هشام الحميري (ت :٢١٣هـ) ، السيرة النبوية ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل ، ((بيروت : ١٤١١هـ) ، ٢٧٥/٤ .
(٣) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٧٦/٤ .

(٤) وَهِي النوق بفصلانها وَقيل المرَاد بِهِ النِّسَاء مَعَ الْأَوْلَاد وَأَصله النَّاقة لأول مَا تضع حَتَّى يقوى وَلَدهَا وَهِي كالنفساء من النِّسَاء والمطافيل ذَوَات الْأَطْفَال وهم صغَار الْبَنِينَ ، وقد قصد انهم اخرجوا حتى النساء والاطفال حتى لا يدخل النبي مكة . ينظر : القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي ، مشارق الانوار على صحاح الاثار ، دار التراث ،(القاهرة : د/ت) ،٨٣ .

الثقافية ، (بيروت :١٩٩٦) ، ط٣ ، ٢٨٠/١ .

(٦) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢٧٦/٤ .

(٧) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٧٧/٤ .

(٨) ثنية المرار : مهبط الحديبية قرب مكة من ارض الحجاز . ينظر : ياقوت : ابو عبد الله بن عبد الله الرومي (ت : ٢٦٢هـ) ، معجم البلدان ، دار صادر ، (بيروت : ١٩٩٥) ، ط٢ ، ٩٢/٥ .

(٩) خلأت : والخِلاءُ في الإبل كالحِران في الدابة، خَلأَتِ الناقة خلاء أي لم تَبْرَحْ مكانَها تعسراً منها . ينظر : الفراهيدي ، الخليل (بن احمد (ت : ١٨٥هـ) ، كتاب العين ، تحقيق : مهدي المخزومي – ابراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال ، (بيروت : د/ت).

(١٠) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢٧٧/٤.

(١١) بديل بن ورقاء : سيد بني خزاعة مات ولم يسلم وكان ادهى العرب ومن ابناءه عبد الله بن بديل من الصحابة قتل مع علي ((١٢) ابن (في صفين . ينظر: الزركلي ، خير الدين ، الاعلام ، دار العلم للملايين ، (بيروت : ٢٠٠٢) ، ط١٥ ، ٢٢١/٤ . هشام ، المصدر السابق ، ٢٧٩/٤.

(١٣) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٧٩,/٤

(١٥) مكرز بن حفص : العامري انفرد ابن حبان بدعوى اسلامه بينما سكت ((١٤) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٧٩/٤. عنه الاخرون ولم يذكروا اسلامه ووصفه النبي بـ (الغادر) وكان من شجعان العرب ووافياءهم وله ذكر في بدر والحديبية . ابو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي (ت :٤٦٣هـ) ، الأستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، (١٦) الواقدي ، محمد بن عمر (ت: ((بيروت : ١٩٩٢) ، ط١ ، ٦٧٠/٢ ؛ ينظر : ابن حجر ، المصدر السابق ،٣١٣/١٠ . (١٧) ابن هشام ، المصدر (٢٠٧هـ) ، المغازي ، تحقيق : مارسدن جونس ، دار الاعلمي ، (بيروت : ١٩٨٩) ، ط٣ ، ٥٩٩/٢ . السابق ، ٢٧٩/٤.

(١٨) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٧٩/٤.

(١٩) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٧٩/٤.

(٢٠) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٨٠/٤.

(٢١) عروة بن مسعود الثقفي : امه سبيعة بنت عبد شمس احد اكابر قومه اسلم بعد غزوة الطائف ودعا قومه ولكنهم قتلوه وهو يؤذن للصلاة . ينظر: ابن حجر ، المصدر السابق ،٤٠٦/٤ .

(٢٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢٨٠/٤.

(٢٣) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢٨٠/٤.

(٢٤) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٨٠/٤.

(٢٥) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٨١/٤.

(٢٦) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٨١/٤.

(٢٧) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٨١/٤.

(٢٨) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٨٣/٤.

(٢٩) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٨٣/٤.

(٣٠) الجد بن قيس : أحد كبار المنافقين في المدينة كان سيداً لبني سلمة نزلت فيه آيات من القران تدل على نفاقه وغيرها وقد عرف عنه البخل مات في خلافة عثمان . ينظر : الواقدي ، المصدر السابق ، ٥٩١/٢ .

(٣١) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٨٣/٤؛ وينظر : المالكي ، حسن بن محمد ، أنارة الدجى في مغازي خير الورى صلى الله عليه واله وسلم ، دار المنهاج ، (جدة : ١٤٢٦هـ) ، ط٢ ، ٤٩٧ .

(٣٢) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢٨٣/٤.

(٣٣) سهيل بن عمرو العامري : كان أحد الأشراف من قريش وساداتهم في الجاهلية، أسر يوم بدر كافرا ، وكان خطيب قريش، اسلم في الفتح وحسن اسلامه وشارك في فتح الشام ومات في طاعون عمواس في فلسطين . ابن عبد البر ، المصدر السابق ، ٦٦٩/٢-٦٧٢.

(٣٤) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٢٨٣/٤.

(٣٥) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٨٣/٤.

(٣٦) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٨٥/٤.

(٣٧) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٨٥/٤.

(٣٨) ابن هشام ، المصدر نفسه ، ٢٨٥/٤.

(٣٩) احمد ، الإمام ابو عبد الله بن حنبل الشيباني (ت : ٢٤١هـ) ، المسند ، تذييل : شعيب الارناؤوط ، مؤسسة قرطبة ، (القاهرة : د.ت) ، ٣٢٣/٤.

(٤٠)ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤/٢٩٠.

(٤١)احمد ، المصدر السابق ،٤/٣٢٣ .

(٤٢)البيهقي : احمد بن الحسين بن علي (ت : ٤٥٨هـ) ، دلائل النبوة ، تحقيق :عبد المعطي قلعجي ،دار الكتب العلمية ، (بيروت : ١٩٨٨) ، ٤/١٦٠.

(٤٣) الفتح ، الاية : ١-٢ .

(٤٤) ابن هشام ، المصدر السابق ، ٤/٢٩١.

(٤٥) الفتح ، الاية :١٨ -١٩ .

(٤٦) الفتح ، الاية : ٢٠.

(٤٧) الفتح ، الاية : ٢٦.

(٤٨) الفتح ، الاية : ٢٥.

(٤٩) محمد بن يوسف الصالحي ، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، تحقيق : عادل احمد عبد الموجود – علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ،(بيروت : ١٩٩٣) ، ط٥،٣/٦٨.

(٥٠) الفتح ، الاية :٤٢

(٥١)الواقدي ، المصدر السابق ،٢/٦٢٢ – ٦٢٩ .